

## الحدائفة الغربية وتشبهُ القِيم

■ عماد الدين عبد الرازق

إنَّ العلاقة بين الحدائفة والقِيم هي علاقةٌ معقدة ومركّبة ومتشابكة، ولقد قدّمت الحدائفة في الفكر الغربي نموذجاً صارخاً للارتباط بالبُعد المادي، والابتعاد عن القِيم الروحية، ونتج عن ذلك سعيٌّ وراء المنفعة واستغلال الشعوب؛ فالقِيم أصبحت تُستمد من هذا البُعد المادي، وأصبح الإنتاج والاستهلاك غايةً تُطلب لذاتها، وأصبح التقدّم في سياق هذا البعد المادي هو معنى الوجود والقيمة القصوى له. ولقد مثّلت الحدائفة في الغرب مشروعاً فكرياً فلسفياً يهدف إلى التغيير الشامل في فكر القرون الوسطى، وقامت على تجاوز جميع الثوابت الدينية والروحية والعقدية، وجوهر هذه الحدائفة هو التقدّم التكنولوجي والعلمي، الذي أحدث ثورةً تغييرٍ في هذه المجتمعات الغربية أبعدها عن القِيم الروحية، وأضحت القِيم - في ظل هذا التقدّم التكنولوجي - تمثل شيئاً من الأشياء، لذا فقدت معناها ومكانتها وأهميتها، وتحولت إلى سلعةٍ تباع وتُشترى، وأصبحت القِيم الإنسانية تقاس بما ينتجه الإنسان من سلع، وبما

■ أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة، كلية الآداب، جامعة بني سويف - مصر.

تتضمنه من علاقات الإنتاج، ولقد أكد على هذا المعنى «ماركس» عندما قال: «إن سائر القيم تحولت إلى مجرد قيمة تبادليه»، ولذا تمّ نقد موقف الحداثة من القيم من جانب عدد من الفلاسفة ومنهم «هابرماس»؛ فلقد أشار إلى أن القيم الإنسانية في ظل الحداثة الغربية تحولت إلى سلعة تباع وتُشترى، وأصبحت السيادة لوسائل الإنتاج وعلاقاته؛ لذا أضحت القيمُ خاليةً من كل معنى. ومن الفكرة نفسها نسج «لوكاتش» مفهومه عن «التشيؤ»، والذي يعني تحوّل الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة، كما يعني أن العالم الاجتماعي تحوّل إلى عالم من الأشياء، والقيم أصبحت سلعةً تباع وتُشترى فالتشيؤ يحوّل القيم إلى شيء من الأشياء، بل يصبح الإنسان نفسه جزءاً من الآلة، ومن ثم يشعر بالاعتراب. أيضاً فكرة أو مفهوم «صنمية أو توثينية السلع» عند «ماركس» يشير هذا المفهوم إلى ظاهرة تسود فيها قوانين السوق وتبادل السلع، وتصبح هذه القوانين هي المسيطرة على المجال البشري بما فيه القيم، أيضاً نقد «ماركيوز» تلك الحداثة وإهمالها للقيم، وذلك عن طريق فكرته عن الإنسان ذي البُعد الواحد؛ حيث يرى أن الإنسان وقيمه قد تحوّلوا - في ظل التقدم العلمي والتكنولوجي - إلى بُعد واحد وهو بُعد الآلة، ولذلك يشعر بالاعتراب. بناءً على ذلك نرى أن الحداثة قد أهملت القيم وحولتها إلى شيء من الأشياء وسلعة من السلع، وأصبحت القيم تخضع لمنطق العرض والطلب، ولقوانين السوق.

### أولاً: موقف هابرماس من الحداثة والتكنولوجيا الغربية

يرى «هابرماس» أنه بقدر تغلغل التقنية في مجالات الحياة الاجتماعية - وما يترتب على ذلك من تغيير في المؤسسات الاجتماعية ذاتها - تتقوض الشرعية القديمة لتحل محلها شرعية جديدة. ويشير إلى أن تغلغل التقنية والتقدم التكنولوجي في مجالات الحياة يترتب عليه شعور الإنسان بالاعتراب، وفقدان للقيم الإنسانية؛ لأن الإنسان أصبح آله، وقيمه تقاس بما ينتجه من سلع.

لذا يرى أن التطور التقني يخضع لمنطق يتبع بنية الفعل العقلاني الموجه نحو الهدف<sup>1</sup>، ثم ينطلق «هابرماس» من فكرة سيطرة وهيمنة التقنية على عالم الحياة إلى فكرة «العقل الأداةي» (Instrumental Reason) وكذلك نَقَدَ هيمنة التكنولوجيا التي أدت إلى اغتراب الإنسان وفقدان قيمه، فالعقل الأداةي - بوجه عام - هو منطقٌ في التفكير، وأسلوبٌ في رؤية العالم، ويُعدُّ هو الأسلوب الذي يحكم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وهو الذي يسيطر على التفكير في المجتمع الصناعي المتقدم، وفيه يخضع الإنسان للتكنولوجيا خضوعاً تاماً، وكذلك نَقَدَ مفهوم العقلانية الأداةية. ويصف «هابرماس»

عملية الحدائفة في الغرب بأنها أدت إلى زيادة في العقلانية الأداةية، وإلى توسعٍ في نطاق الفعل الأداةي في مجال الاقتصاد والإدارة، والعلم والتكنولوجيا، على حساب العقلانية التواصلية في المجال الاجتماعي<sup>2</sup>.

ويستمر «هابرماس» في نقده للتقدم العلمي والتكنولوجي؛ فقد أصبحا - في نظره - يشكلمان الأيديولوجية الجديدة، وقد صاحب الدور الأيديولوجي وعياً تكنوقراطياً Technocratic؛ أي «حكومة الفنيين». هذا الوعي يعمل على حلِّ

القضايا الاجتماعية على أنها مسائلٌ تُحلُّ بمنطقٍ أداةي؛ أي بوسائل تقنية، كما صاحبه عزل الجماهير عن عملية اتخاذ القرار. ورغم هذا التقدم التكنولوجي والعلمي فإن الإنسان أضحى في ظلها شيئاً من الأشياء، وفقد ذاته واغترب عنها، وفقدت القيم معناها، وأصبحت لا معنى لها، بل إن قيمة الإنسان أصبحت تقاس بما ينتجه من سلع، ويخضع لمنطق العرض والطلب، ووسائل السوق وأدواته<sup>3</sup>.

يرى «هابرماس» أنه بقدر تغلغل التقنية في مجالات الحياة الاجتماعية - وما يترتب على ذلك من تغيير في المؤسسات الاجتماعية ذاتها - تتقوض الشرعية القديمة لتحل محلها شرعية جديدة.

1 - Habermas: Science and Technology as Ideology "In Theory and Practice", Beacon Press 1974, p. 132.

2 - Habermas: Legitimizing Crisis Translated by Thomas McCarthy, London 1976, p. 23

3 - Habermas: Science and Technology as Ideology, p. 194.

بناءً على ذلك يرفض «هابرماس» تَغْلُفَ التكنولوجيا وسيطرتها على الحياة الاجتماعية، ويريد الحدّ من هذه السيطرة؛ لأنها جعلت الإنسان ترساً في آلة، بل اغترب عن ذاته وفَقَدَ قيمه، وأصبح شيئاً من الأشياء.

### ثانياً: التشيؤ عند لوكاتش «Reification»

الفكرة نفسها عند لوكاتش في نقد الحداثة الغربية من خلال عرضه لمفهوم «التشيؤ»، والذي يعني عنده أن المجتمع يجب عليه أن يُشبع حاجاته كلها وفق نموذج علاقاته الاقتصادية، ومن ثم تعم ظاهرة التشيؤ<sup>4</sup>.

ولقد عرّف «لوكاتش» التشيؤ بأنه «تحولُ الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة واتخاذها لوجود مستقل، واكتسائها لصفاتٍ غامضة غير إنسانية. وهنا التشيؤ يعني اغتراب الإنسان في ظل هذه العلاقات الاقتصادية؛ حيث لم تعد السلع تقاس بقيمتها الواقعية؛ وإنما تتحدّد بقيمةٍ مجردة يحددها السوق. ويرى «لوكاتش» أن هذه الفكرة تشكّل نقداً أخلاقياً قوياً للنظام الرأسمالي والحداثة الغربية، والذي من خلالها تحوّل البشر إلى أشياء يمكن أن تباع وتشترى، وفي هذه الفكرة أيضاً يصبح العالم الاجتماعي عالماً من الأشياء، شأنه في ذلك شأن العالم الطبيعي، وأصبح المجتمع يمثل طبيعة ثانية» إلى جانب العالم الطبيعي الأصلي، وأصبح يبدو كما لو أنه مستقلٌّ عن الفعل الإنساني، شأنه في ذلك شأن استقلال قوانين الطبيعة<sup>5</sup>.

ويستنتج «لوكاتش» أن عملية العقلنة أو العقلانية هي المسؤولة عن ظاهرة التشيؤ؛ فخصائص العقلنة هي القابلية لحساب كل تفاصيل الحياة الاجتماعية، والقدرة على إحلال الميكنة محل العمل البشري العضوي، والقدرة على تقسيم العمل إلى وحدات صغيرة متخصصة يسهل ميكنتها، وتوسيع نطاق

4 - Lukas (g): History and Class Consciousness. Translated by Rodney Livingstone - London 1971, p. 110.

5 - أيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة، الكويت العدد 244، 1999، ص31.

التخصص في العمل الإداري، فالعقلنة في مجال العمل - كما يرى «لوكانش» - هي توسيع التشيؤ<sup>6</sup>.

من هنا يتضح لنا أن التشيؤ ظاهرة عامة تتحكم في الوعي الإنساني، ويصبح الإنسان من خلالها مثله مثل أي شيء، وتقاس قيمته بما ينتجه من سلع، كذلك أصبحت العلاقات الاقتصادية هي التي تتحكم في مجالات الحياة، وبذلك فقدت القِيم الإنسانية معناها.

### ثالثاً: صنمية أو فتشية السلع عند ماركس "Fetishism"

يرفض «هابرماس»  
تَغَلُّلَ التكنولوجيا  
وسيطرتها على الحياة  
الاجتماعية، ويريد  
الحد من هذه السيطرة؛  
لأنها جعلت الإنسان ترساً  
في آلة، بل اغترب عن  
ذاته وفقد قيمه، وأصبح  
شيئاً من الأشياء.

يرى «ماركس» أن أسلوب الإنتاج الرأسمالي نظامٌ منتج للسلع، فكلّ التنظيمات الاقتصادية وكل تفاصيل عملية الإنتاج في النظام الرأسمالي تهدف إلى هذه الغاية، وهي إنتاج السلع. وعلى الرغم من أن السلع هي نتاج العمل البشري، فإنها - بمجرد دخولها في علاقات تبادل في السوق مع غيرها من السلع الأخرى - تصبح لها قوانينها الخاصة التي تسمى قوانين السوق؛ مثل العرض والطلب، وبذلك تستقل عن أصلها البشري والاجتماعي، ويصبح لها كيانها الخاص بها<sup>7</sup>.

هنا نرى أن صنمية السلع هي ظاهرة تُسود فيها قوانين السوق وتبادل السلع، وتصبح هذه القوانين هي المسيطرة على المجال البشري.

ولا يقتصر الأمر على ذلك كما يرى «ماركس»؛ بل إنتاج السلع يصبح هو الذي ينظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وينظم علاقاتهم بالمجتمع، وبذلك تأخذ الطابع الصنمي، كما أن طاقة العمل البشري تقاس بمدى قدرتها على

Luck as: op. cit., p. 112.

- 6

- 7 كارل ماركس: رأس المال، ترجمة فالح عبد الجبار وآخرين، المجلد الأول، الجزء الثاني، دار التقدّم، موسكو، ص 108.

إنتاج سلع في فترة زمنية محددة، كما تتحدّد قيمة العمل بقيمة ما ينتج من سلع، وهذا يؤدي إلى تشيؤ العلاقات الاجتماعية، فالعلاقات بين المنتجين - التي هي في الأصل علاقات اجتماعية - تظهر على أنها علاقات بين منتجاتِ عَمَلِهِمْ، تحكّمها قوانينٌ اقتصادية<sup>8</sup>.

إذن فتشبيهُ أو «صنميةُ السلع» هي التي تحدد العلاقات الاجتماعية، وتطبع كل العلاقات الاجتماعية بطابع سلعي محدد، وتسيطر على جميع مجالات الحياة، وتصيب الوعي الإنساني بالتشيؤ، وتصبح قيمة الإنسان تقاس بما ينتجه من سلع، ويتحوّل الإنسان في ظلها إلى شيءٍ أو سلعة تباع وتُشترى.

وفكرة فتشبية السلع لها علاقة وثيقة وصلة حميمة بمفهوم ماركس عن «الاجتراب» Alienation، وتتلخص هذه النظرية في افتراض وجود سماتٍ معينة للحياة الإنسانية، ويحدث الاجتراب بشكل عام حينما تسيطر على الإنسان البيئَةُ الاجتماعية التي خلقها بيده، ولقد رأى «ماركس» أن هذه الظاهرة تحدّث بصفة خاصة في المجتمع الرأسمالي:

حينما لا يسيطر الناس على ما ينتجون، ويفصلون بعضهم عن بعض، وتفقد جماعية العمل معالمها<sup>9</sup>.

ويرى «ماركس» أن البشر - من خلال ظاهرة الاجتراب - لا يسيطرون أيضاً على ناتج عملهم، وينقطعون عن قدرتهم واتخاذ القرارات، بل يبدو كما لو أنهم مجبرون على العمل من قِبَل أناسٍ آخرين، الاجتراب كذلك حالة يصبح فيها البشر دُمىً للنُظُم الاجتماعية التي صنعوها بأيديهم<sup>10</sup>.

#### رابعاً: ماركيزوز والإنسان ذو البُعد الواحد

نرى ماركيزوز ينطلق في فكرته عن الإنسان ذي البُعد الواحد "one dimensional man" من أطروحة أساسية هي التفاقم اللامحدود لسلطة

8 - المرجع السابق، ص 110.

9 - أيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص 298.

10 - المرجع السابق، ص 299.

الألة في المجتمعات الصناعية الكبرى، التي زادت فيها سلطة الحدائثة والتقدّم التكنولوجي.

يرى «ماركيوز» تحوُّل الإنسان - في ظلّ التقدم التكنولوجي - إلى بُعدٍ واحد يمثل البعد التقني لسلطة الألة؛ بحيث تفرز نمطاً من العلاقة بين الفرد والمؤسسات التي تتحكم بتنظيمه الاجتماعي ووجوده اليومي، وتجعل وعيهُ يتموضع في نقطة محدّدة وموجهاً نحو الهدف الذي ترسمه الدولة ومؤسساتها. ويشير إلى هيمنة الألة الصناعية الكبرى والاتجاه الاستهلاكي الساحق الذي نجح في نزعه من الذوبان داخل تياره المتمكن، بحيث أصبح الإنسان في ظله يخضع لقوانين الإنتاج، وقيمتُهُ تتحدد بقوانين السوق والسلع<sup>11</sup>.

**أصبحت العلاقات الاجتماعية علاقاتٍ ترتبط بقوانين الإنتاج، ومن هنا حدث تشويهٌ لقيم الإنسان وجوهره الحقيقي، بل أصبح هناك تفكُّكٌ اجتماعي، وتشبيهُ للقيم.**

ورأى «ماركيوز» أن سلطة الدولة أصبحت أكثر اتساعاً، فكما حدّث تقدّم في وسائل الإنتاج وفي العلم والتكنولوجيا حدث تقدّم مماثل في إدارة الدولة وفي قدرتها على القمع، ولقد عمل التقدم الصناعي الحديث على تشويه طبقتي البرولتاريا والبورجوازية وتشويه العلاقة بينهما. وهنا يشير «ماركيوز» إلى أن الإنسان أصبح ذا بُعدٍ واحد يعتمد على التقدم التكنولوجي والعلمي، بُعدٍ يقاس بما يتمّ إحرازه من إنتاج للسلع، وبهذا أصبح

الإنسان مغترباً عن ذاته، بل أصبح منفصلاً عمّا ينتجه من سلع وإنتاج، وأصبحت العلاقات الاجتماعية علاقاتٍ ترتبط بقوانين الإنتاج، ومن هنا حدث تشويهٌ لقيم الإنسان وجوهره الحقيقي، بل أصبح هناك تفكُّكٌ اجتماعي، وتشبيهُ للقيم<sup>12</sup>.

وتلك الفكرة عن ضياع الإنسان وفقدانه لذاته وشعوره بالاغتراب - في ظل سيطرة وهيمنة التكنولوجيا أو ما يُسمى بالحدائثة الغربية - نجد لها أيضاً مثيلاً عن مفهوم «هوركهايمر» عن نهاية الفرد.

Marcuse (H) One Dimensional Man, Beacon Press, Boston 1966, p. 158.

- 11

12 - ماركيوز «الإنسان ذو البُعد الواحد»، ترجمة جورج طرايبيشي، دار الآداب، بيروت، 1971، ص 66.



## خامساً: هوركهايمر ونهاية الفرد "The End of Individual"

لقد رأى «هوركهايمر» أن الفرد - في ظل المجتمعات الصناعية المتقدمة - يعاني أزمة عميقة، وهي اضمحلال أهميته؛ فلقد كان النظام الرأسمالي - في بداية ظهوره - يعتمد على الجهود الشخصي والأفعال المستقلة للأفراد، ولذلك كان هناك أساس قوي للفردية، أما الآن - ومع انتهاء الرأسمالية الليبرالية وظهور رأسمالية الدولة - فلقد اختفى الأساس الاقتصادي للفردية؛ إذ أصبحت الرأسمالية تعتمد لا على الأفراد، بل على وحدات إنتاجية أكبر مثل الشركات والمؤسسات، وهنا نجد ضياع الفرد واغترابه بسبب سيطرة الآلة والمؤسسات الكبرى على مجالات الحياة وفقدان القيم وضياعها، وأصبحت قيمة الإنسان تقاس بما ينتجه من سلع، وأصبح يخضع لقوانين السوق<sup>13</sup>.

وبتلك الوسيلة يرى «هوركهايمر» أن على الفرد أن يتكيف مع هذا الوضع الجديد؛ لأنه فُرضَ عليه الاندماج في نُظُمٍ اجتماعية واقتصادية لكي يستمر في البقاء، وتحولت قيمه من قيم تسعى لتحقيق الذات، وتشكيل المصير الشخصي، وتحقيق الإمكانات الفردية - من إبداع وابتكار وخلق - إلى قيم تسعى للامتثال والتكيف مع الوضع القائم<sup>14</sup>.

ويؤكد «هوركهايمر» على الفكرة نفسها من خلال مفهوم «خسوف العقل» "Eclipse of Reason" أو اضمحلال العقل؛ لأن العقل أصبح يتعامل مع مجالات المادة، وتم استبدال عملية اكتشاف المعنى بعملية التدريب على الوظائف، ومعنى سيادة التصور الأداتي عن العقل تتحول المكالمات الذهنية إلى وظائف؛ أي إلى نوعٍ من التقنية تتطلب التدريب عليها لممارستها جيداً، كما تتطلب الخبير الذي يتخصص في جزئية صغيرة من العمليات العقلية بدلاً من شخصية الإنسان الكاملة، وبتفتت العمليات العقلية إلى أجزاء وتحول هذه الأجزاء إلى اختصاصات لخبراء يتم تشيؤ العقل وتحولُه إلى آلة. ومن هنا نرى سيطرة

13 - Lehman. (G): The Baillie of seal Real Realization on Interpretation of Horkiemer, S. Eclipse of Reason, Oxford 1941, p. 238-239.

Ibid: p. 133.



وهيمنة الآلة على كل شيء، وتحوُّل الإنسان وقيمه إلى شيء من الأشياء، وفقدانه لقيمه الحقيقية، علاوة على شعوره بالاعتراب وتحويل القيم الإنسانية إلى قيم مادية<sup>15</sup>، الذي يعمل على إخضاع وغي الجماهير للسلطة القائمة والتسليم بها، فتعمل السينما والإذاعة والصحف والمجلات على تأكيد القيم الثقافية التقليدية للمجتمع، وخلق حاجاتٍ جديدة للفرد عن طريق الدعاية والإعلان، ويحاول إشباعها بمزيد من الانصياع لقواعد اللعبة؛ أي ربطه بدائرة المجتمع الاستهلاكي<sup>16</sup>.

**لقد رأى «هوركهايمر» أن الفرد - في ظل المجتمعات الصناعية المتقدمة - يعاني أزمة عميقة، وهي اضمحلال أهميته؛ فلقد كان النظام الرأسمالي - في بداية ظهوره - يعتمد على المجهود الشخصي والأفعال المستقلة للأفراد.**

ولقد أشار كلٌّ من «هوركهايمر وأدورنو» إلى أنه بينما كانت الثقافة طوال التاريخ الأوروبي - من فنٍّ وأدبٍ ومسرح - باعثةً على الأمل في مستقبل أفضل، وداعيةً إلى قيم العقل والحرية والتحرر من كل ما يقيد النمو الحر للفرد، ومحتويةً على عنصر يوتوبي يجعل من العقل حكماً على الواقع؛ انتهى كل ذلك مع نمط الثقافة الجديدة، التي تنشرها وسائل الاتصال الجماهيري؛ فلقد اختفى البعد اليوتوبي، وأصبح هدف هذه الثقافة هو التسلية وإمضاء وقت

الفراغ. ولقد رأى «أدورنو» أن سيطرة التكنولوجيا تتوسّط جوهر الثقافة الحديثة، التي تُعدُّ بدورها توطئةً تكنولوجياً مستنزفاً من خلال وسط جماهيري، وقد لاحظ أيضاً أن تكنولوجيا الثقافة لا تحدث من خلال مجالات أو قطاعات معينة؛ ولكنها تحدث داخل الحضارة ككل وفي ضوء الوسط الجماهيري، لا تتحدث الحضارة إلا عن صوت واحد متحكم هو صوت العقلانية التكنولوجية<sup>17</sup>.

Horkhimer (M): The End of Reason, Oxford, 1918, p. 123.

- 15

Horkhimer and Adorno: The Culture Industry "Ass Mass Deception in Dialectic Enlightenment", New York, 1973, p. 120.

- 16

Horkhimer and Adorno: op. cit., p. 125.

- 17



من كل ما سبق نرى كيف أن التقدّم التكنولوجي والعلمي - أو ما يُسمى بالحدّثة الغربية - قد دخل إلى جميع ميادين الحياة، وكيف سيطر على هذه المجالات، وأصبح الإنسان في ظلّها يشعر بالاعتراب، وابتعد عن ذاته، وأصبح شيئاً من الأشياء، وأصبحت قيمة الإنسان تقاس بما ينتجه من سلع ومنتجات، بل أصبح الإنسان وقيمه يخضعان لقوانين السوق والعرض والطلب، ومن هنا فقدت القيمُ معناها، وأصبحت خاليةً من أي معنى، وأصبح الإنسان يخضع لسلطة الآلة، وأصبح ترساً فيها، وكلما أنتج وزاد في الإنتاج زادت قيمته؛ ومن ثمّ شعر الإنسان بالاعتراب والبُعد عن جوهره الحقيقي، وأصبح كل شيءٍ في مجال الحياة الاجتماعية يخضع للتقدّم التكنولوجي؛ حيث أصبحت القيم مثل السلع، وتقاس بمقياسها وبوسائلها نفسها، وهنا ظهرت أزمة الإنسان المعاصر في ظلّ حضارة صناعية لا تعترف إلا بالماديات والبعد عن الروحانيات، وأضحى الإنسان يشعر بالاعتراب والتشيؤ، وأصبح مثله مثل الأشياء المادية التي تخضع لقوانين العرض والطلب.